

المثقف العربي: دوره وعلاقته بالسلطة والمجتمع (*)

تقرير خالد زياده

قدمت في الحلقة الدراسية التي عقدت في الرباط تحت عنوان: «المثقف العربي، دوره وعلاقته بالسلطة والمجتمع» خمس محاضرات، أعقب كل واحدة منها تعقيب ونقاش موسع في بعض الحالات.

- المحور الأول أو المحاضرة الأولى قدمها الطاهر لبيب تحت عنوان: تساؤلات حول المثقف العربي والسلطة، طرح فيها تساؤلات من نوع من هو المثقف؟ ومن هو المثقف العربي؟ وما هي السلطة وعلاقة المثقف بها؟ ويمكننا أن نستعرض نقطتين أساسيتين، الأولى تتعلق بالعلاقة الدقيقة بين المثقف والسلطة وقد عبّر عنها على النحو التالي: «إن المثقف كثيراً ما يقدم نفسه على أنه ضحية السلطة، ولكنه قلماً يتنازل عما تمنحه له السلطة من امتيازات. إنه يطمع إلى اكتمال سلطته، إلى أن يكون سلطة.. هذه الجاذبية تفقد المصدقية في أغلب الحالات: تجارب صعود المثقفين إلى السلطة بينت أنهم يتنكرون للمبادئ التي دافعوا عنها ويستعملون وسائل السلطة التي طالما نددوا بها» (ص ٣٣).

أما النقطة الثانية التي تسترعي الانتباه في محاضرة الطاهر لبيب فتتناول

(*) مراجعة لحلقة الرباط الدراسية، مايو/ أيار ١٩٨٥، التي أعدها المجلس القومي للثقافة العربية - منشورات مطبعة المعارف الجديدة بالرباط.

المثقف العربي تاريخياً وراهناً، وقد لاحظ، من خلال ابن خلدون، أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها، أما أصحاب القلم فأقرب إلى السياسة وسيفها. فثمة إذاً تمييز بين العلم والقلم في علاقتها بالسياسة يعادل التمييز الحديث بين المثقف والتقني (ص ٣٤). والواقع أن هذه المقارنة يمكنها أن تستدعي جدالاً طويلاً، فمع صحة موقع العالم وصاحب القلم من الدولة، فهل صحيح أن المثقف هو وريث الفقيه، وهل صحيح أن التقني هو وريث صاحب القلم. إن أمثال هذه المقارنات يترك مجالاً لتصميمات يمكنها أن تشتت إدراكنا للمسألة المطروحة.

ينهي الطاهر لبيب محاضرته لتحديد موقع السلطة العربية من المثقفين فيرى أن السلطة العربية عموماً لا تتسع لتنوع داخلي.

في المناقشات التي أعقبت محاضرة الطاهر لبيب جاءت الآراء على النحو التالي؛ رأى محمد مصطفى القباج أن المحاضر سقط في الفخ السارترى الذي جعل تفاصيل الموقف وتحليلات العمل والأجراء تدخل في إطار المفهوم التقني ومفهوم التخصص ومن جهة ثانية، اعتمد الإطار الماركسي الذي يحلل أدوار المثقفين كأدوار وظيفية أو كأدوار أدائية. . الخ.

وفي إطار المناقشة رجع نديم البيطار إلى الظروف التي ظهرت فيها كلمة مثقف: عندما نرجع إلى كلمة انتلجنسيا، نجد أن هناك أوضاعاً تاريخية يمكن تسميتها بالانتقالية أو الأوضاع الثورية، كانت تنسلخ بها جماعة من المتعلمين تقف على مسافة ما، قد تبعد أو تقرب من النظام القائم. وأضاف البيطار: كنت في عداد أولئك الذين توهموا أن الانتلجنسيا كلمة روسية، وقد فوجئت في الواقع حينما علمت أنها كلمة من أصل بولندي نزحت إلى روسيا، والسؤال هو لماذا لم تجد هذه الكلمة معناها التاريخي في بولندا التي نشأت فيها؟ ولم تجد معناها التاريخي أو تمارس دورها التاريخي في ألمانيا إن صح قول أحد المؤرخين؟ إن الوضع التاريخي في روسيا كان مناسباً أكثر من أي وضع تاريخي آخر لإفراز تلك الأولية التي تفسح في المجال لظهور ذلك المثقف الذي يقف على مسافة بعيدة من نظام قائم ويكون أكمل تعبير عن الانتلجنسيا في السمات التي ذكرتها،

وخصوصاً الدعوة إلى تصورات مستقبلية تبشر بنظام جديد يحل محل النظام السابق. أما كلمة *Intellectuel* فقد ظهرت في فرنسا لأول مرة في أواخر القرن التاسع عشر في قضية «درايفوس» الشهيرة. وكان أول من استخدمها هو «كليمنصو» في جريدته.. لكن استخدام الكلمة في فرنسا لم يكن بجذرية استخدامها في روسيا، لأن الوضع الفرنسي، في ذلك الوقت، لم يكن من نوع الوضع في روسيا.

أما محمد جسوس فأشار إلى أن مفهوم المثقف قائم بالأساس في المجتمعات الأوروبية اللاتينية.. هذا المفهوم برز في ظروف خاصة اتسمت ب بروز سوق ثقافية جديدة، تمكنت فئة معينة أن تستقل شيئاً ما عن أهل السيف والسلطة، وأن يكون لها رأي عام تتجه به نحو المواطنين لنشر العديد من أفكارها.

- المحاضرة الثانية قدمها نديم البيطار تحت عنوان: المثقف والمجتمع، وقد ذكر بشكل خاص أن: الفكر الوجداني، أو الفكر التقدمي والثوري عبر الوطن العربي يركز بشكل خاص على دور الجماهير، ويتحدث حول الموضوع عادة وكأن المثقفين غير موجودين.. وأودّ نقد هذا الاتجاه بالتدليل على الدور الأساسي الذي يمارسه المثقف في مراحل من هذا النوع..

ومع ذلك، فإن ورقة د. البيطار لم تتضمن شيئاً فيما يتعلق بعلاقة المثقف العربي بالمجتمع وإنما اشتملت على عرض مطول للتطور الفكري في التاريخ الغربي منذ البيان الشيوعي وحتى حركات الطلاب عام ١٩٦٨.

- المحاضرة الثالثة كانت من حافظ الجمالي وموضوعها: موقف المثقف العربي من إشكالية النهضة من حيث الرؤية الايديولوجية، وتضمنت عرضاً لمراحل النهضة العربية حسب الفهم التقليدي منذ حملة بوناپرت وحتى بدايات القرن العشرين مع التفاتٍ لتطور مفاهيم الديمقراطية والوحدة العربية أو ما يسميه ظهور الايديولوجيا.

وفي المناقشة أوضح كمال عبد اللطيف: أن المشروع النهضوي العربي في اللحظة الأولى حاول المزج بين الإسلام وأوروبا وأن هذه الازدواجية ستستمر في

مطلع القرن العشرين، وستستمر بأشكال أخرى على مستوى التنظيمات السياسية لاحقاً، وستستمر على مستوى قراءة التراث... وعندما يستمر المثقف العربي اليوم في حديثه بلغتين فإنه يستمر في الحديث بلغة تدعم استمرار التأخر. وأشار المهدي المسعودي إلى أن الأخطار تهدد مثل هذه الندوات الثقافية من إعادة إنتاج وترديد الخطابات المجردة حول الثقافة. كما أشار محمد جسوس إلى العواقب الانقسامية التي يمكن أن يؤدي إليها تكرار مثل هذه الندوات الوجدانية، لأن الندوات الوجدانية تنحصر في مجال الوعظ والإرشاد والتبشير. وما طرحنا قضية من القضايا المصيرية إلا وهربنا إلى مظلة من المظلات التراث أو الماضي كشيء مجهول أو مظلة الارتواء في طروحات عامة ومعممة حول ما يسمى بالغرب.

- المحاضرة الرابعة كانت لمحمد عابد الجابري تحت عنوان: المثقف العربي وإشكالية النهضة: رؤية مستقبلية. وقد طرح الإشكاليات على شكل ثنائيات: العروبة والإسلام - الدولة والدين - الأصالة والمعاصرة - الوحدة والتجزئة.

بالنسبة لثنائية العروبة والإسلام، يقول الجابري إن هذه المسألة لم تكن قائمة على الإطلاق في المغرب، إننا عندما نقرأ كتابات مشرقية حول «مشكل» الاختيار أو المفاضلة بين العروبة والإسلام، فإننا نجد أنفسنا أمام كتابات لا تنفذ، بما تريد أن تقول، إلى وجداننا وإلى عقولنا، بل يمكن أن أقول إننا هنا نشعر بأن المسألة غير ذات موضوع أعني أن الأمر يتعلق بمشكل غير مطروح، وبالتالي بإشكالية مزيفة.

وأوضح الجابري أن أصل المشكل يقع في المشرق وليس في المغرب، وهو محلي وليس عربياً، وقد حصل كردّ فعل من سكان سورية الكبرى ضد الحكم العثماني وسياسة التتريك.

أما الثنائية بين الدين والدولة فترجع بأصولها إلى القرن الماضي وإلى صراع عرب المشرق مع السلطة العثمانية التي كانت تحكم باسم الإسلام بلداناً عربية فيها أقليات دينية غير مسلمة.. وفي اعتقادي أن الدولة العربية الحالية لا

تختلف عن الدولة العربية الإسلامية كما عرفها التاريخ منذ معاوية، أي منذ أن تأسست في المجتمع العربي الإسلامي الدولة بمعنى الكلمة.

ومن ثنائيات الفكر العربي المعاصر ثنائية الأصالة/ المعاصرة التي تدخل تحتها عدة ثنائيات فرعية مثل ثنائية السلفية/ الليبرالية.. إن هذا المشكل، بهذه الصورة، لم يكن مطروحاً في كل البلاد العربية. ففي بلاد المغرب العربي، وفي أقطار عربية أخرى، غير سورية ومصر، وكان المضمون الذي يُعطى للسلفية مضموناً نهضوياً، اصلاحياً، وبالتالي فلم يكن هناك تقابل بين السلفية والليبرالية بل بالعكس، كان هناك تداخل وتكامل.

أما بخصوص ثنائية الوحدة والتجزئة، فيرى الجابري أن اختزال قضية الوحدة في مشكل التجزئة التي ورثناها من الاستعمار أو من غيره اختزال يشوه القضية سواء على مستوى التاريخ أو على مستوى المعطيات الواقعية الحاضرة.. ذلك أننا عندما نطمح اليوم إلى تحقيق الوحدة العربية فنحن نطمح إلى مشروع تاريخي جديد تماماً.. الخ.

* * *

يمكننا من خلال الاستعراض الذي قمنا به لمحاور ندوة الرباط أن نشير إلى نقطة مركزية توضحها هذه الندوة بقوة، تقوم على الفرق في تناول وإدراك مفهوم المثقف بين المشرق العربي ومغربه. ولعل مداخله الجابري انطلقت من هذه المفارقة بالذات.

نلاحظ بهذا الخصوص أن مسألة المثقف، وتشكل طبقة انتلجنسيا التي تدخل في الهموم الثقافية في أقطار المغرب، تغيب غياباً شبه مطلق لدى مثقفي المشرق. ولا يتعلق الأمر بحضور المثقفين في المغرب وغياهم في المشرق، وإنما تنحصر المسألة على مستوى الإدراك بالدرجة الأولى. إن التحليل الأولي يقودنا إلى ملاحظة التشابه في الوظائف والأدوار التي يقوم بأعبائها المثقفون في المشرق والمغرب على السواء، ومع ذلك فإن المثقف المشرقي يذوب في البناءات الايديولوجية التي يساهم في صنعها ويخضع لها. وقد عبر عن ذلك أحد

المشاركين في الندوة إياها والذي قال: لم يعد هناك في لبنان مثقفون، فالمثقف الحقيقي إما أن يكون في المعركة أو لا يكون وذلك لأن القانون هو قانون الصراع والحياة (ص ١٣٨).

وهذا ما نلاحظه في محاضرات نديم البيطار وحافظ الجمالي وناجي علوش حيث يضمحل المثقف المشرقي في المجتمع وفي الوحدة وفي النهضة وفي النضال القومي.

وفي هذا الإطار، فإن محاضرة محمد عابد الجابري التي تملك أهمية فائقة في مضمارها تأتي لتوضح المشاكل المفهومية التي يغرق فيها المثقفون في المشرق من خلال الثنائيات التي عرضناها سابقاً. وتشكل هذه الثنائيات أداة تحليل لتشريح الأوليات الثقافية التي تتحكم بالمثقفين المشرقيين. ولعل محاضرة حافظ الجمالي بحد ذاتها توضح، في خلال العرض الذي قام به، الطابع الايديولوجي الغالب للقضايا التي تتحكم بإدراك المثقفين والمفكرين في سوريا ومصر.

بالمقابل، نستطيع أن نلاحظ، من خلال المناقشات التي دارت في الندوة، ان التكون المعرفي للمثقفين في المغرب يسمح لهم بإدراك أشد وضوحاً لتمايز المثقف عن السلطة، ووظيفته المحدودة داخل المجتمع.